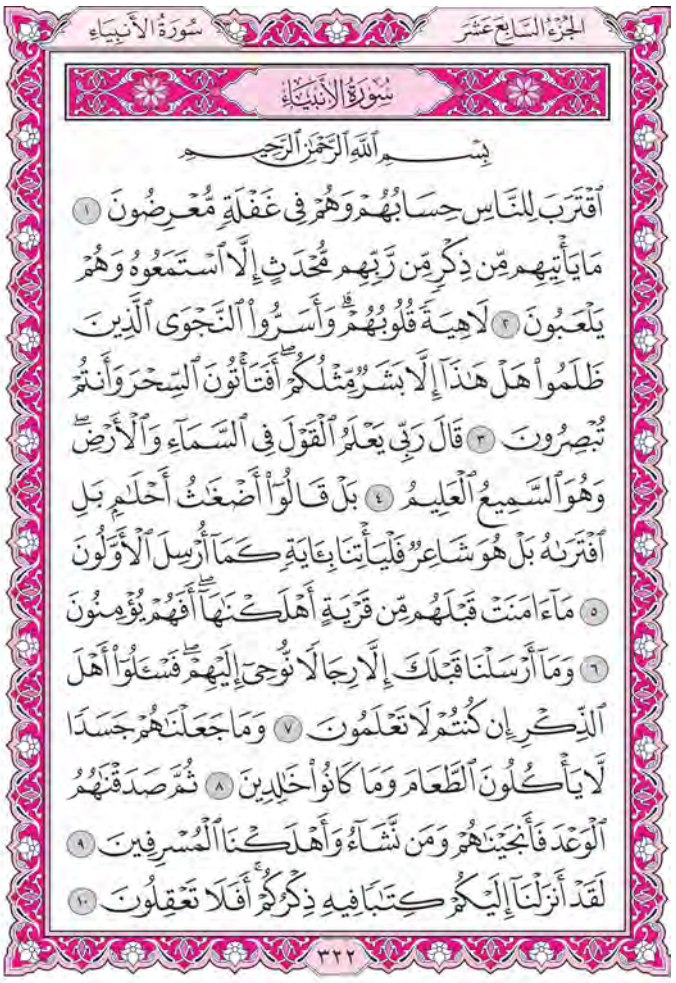

سورة الأنبياء

سورة الأنبياء مكيّة وآياتها اثنتا عشرة ومائة آية.

وسميت بسورة الأنبياء لأنه ورد فيها ذكر قصص عدد من الأنبياء، وبيّنت ما أنعم الله به عليهم غير النبوة: من إجابة الدعوة، وشفائهم، وإزالة ما بهم من ضر.

[١] يخبر جل وعلا باقتراب الزمن الذي سوف يُحَاسَبُ فيه الناس علىٰ ما قدموا من الأعمال، وهو يوم القيامة، ومعلوم أن كل ما هو آت فهو محقق الإتيان وإن تأخر لحكمة أرادها الله، ومع ذلك فإن الكفار يعيشون في لهو وغفلة وإعراض عن دين الله.

ولا شك أن المعرضين كثيرون في كل زمان، فمن الناس من يكون معرضًا عن الإيمان والإسلام كالكفار، ومنهم من يكون معرضًا عن الأعمال الصالحة والتوبة ومنغمسًا في ما يبعده عن الله تعالىٰ كالمسلمين أصحاب الذنوب والمعاصي الشهوات.

[٢] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار كلما نزَّل الله عليهم قرآنًا جديدًا يحثهم علىٰ ما ينفعهم؛ فإنهم يستمعون إليه وهم مستهزئون ساخرون لا يعتبرون ولا يتعظون.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار بعد أن يستمعوا إلىٰ القرآن تكون قلوبهم لاهية وغافلة عنه في أباطيل الدنيا وشهواتها، وإذا اختلوا واجتمعوا أسرَّ بعضهم إلىٰ بعض وقالوا: إن محمدًا بشر مثلهم، وإن ما جاء به من القرآن فهو سحر، فكيف تؤمنون به وتتبعونه، وأنتم ترون أنه بشر مثلكم؟

[٤] فأجابهم النبي ﷺ قائلًا: اعلموا أيها الكفار أن ربي يعلم القول - الخفيَّ والجليَّ - في أيِّ مكانٍ تكلَّم فيه صاحبه في السماء والأرض، واعلموا أن الله هو السميع الذي يسمع أقوالكم سرّها وجهرها، والعليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض.

[٥] ولكن هؤلاء الكفار لم يكتفوا بما قالوه آنفًا عن النبي ﷺ من أنه بشر، وأن القرآن سحر؛ بل قالوا: إن هذا القرآن عبارة عن أخلاط وأباطيل لا حقيقة لها، وإن النبي ﷺ اختلقه من عند نفسه، وإن هذا النبي ﷺ ما هو إلا شاعر، وهذا القرآن الذي جاء به نوع من أنواع الشعر، ولا شك أن مثل هذا الكلام قيل لسائر الرسل من أممهم، وهذا شأن من استولىٰ عليه الهوىٰ واتبع الشيطان، ثم قالوا: وإذا كان هذا النبي ﷺ صادقًا في دعواه فليأتِنا بآية محسوسة كالتي جاء بها الأنبياء المرسلون من قبله، كناقة صالح، وآيات موسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام.

[٦] فأجاب جل وعلا علىٰ مقولتهم فقال: اعلموا أن جميع الذين طلبوا الآيات من الأقوام السابقة قبل كفار مكة ثم أتتهم لم يؤمنوا بها؛ ولذلك حق عليهم العذاب فاستؤصلوا، فهل أنتم بدعٌ منهم؟، أي: إذا آمنتم ياأهل مكة وتحققت لكم الآيات التي طلبتموها هل ستؤمنون؟ كلا إنكم لن تؤمنوا أبدًا.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، لاستبعاد الإيمان منهم أو استحالته إذا جاءتهم الآيات التي طلبوها.

[٧] واعلم يانبي الله ما كان هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم لأقوامهم قبلك إلّا من البشر، لا من الملائكة ولا من غيرهم، فاسألوا أيها المشركون أهلَ الكتاب قبلكم من اليهود والنصارىٰ عن الرسل الذين جاؤوهم إن كنتم لا تعلمون حقيقة من أرسلنا إليهم.

[٨] واعلموا أيها الكفار أن هؤلاء الرسل ما كانوا إلّا بشرًا لهم أجسادٌ كأجسادكم، ويفتقرون للطعام والشراب مثلكم، ويموتون مثلكم، فهم ليسوا بمخلدين في هذه الدنيا.

[٩] ثم بين جل وعلا أنه صَدَقَ ما وعد به رسله وأتباعهم من جعل العاقبة لهم، فأولًا: أنجاهم وأتباعهم من العذاب الذي أنزله بأعدائهم، وثانيًا: أهلك المجرمين الذين تجاوزوا حدود الله وكفروا وظلموا وأعرضوا عن دين الله الحق.

[١٠] واعلموا أيها اناس أن الله أنزل إليكم قرآنًا عظيم الشأن، فيه ما تتذكرون وتتعظون به؛ لهدايتكم وإصلاحكم وإسعادكم، وفيه شرفكم وعزكم إن آمنتم بما فيه، واتبعتم أوامره، وانتهيتم عن نواهيه، وقد شرّفكم الله به حيث نزل بلغتكم، وأُمرتم بنشره وتبليغه، فهلَّا أعملتم عقولكم، وفكَّرتم فيما ينفعكم ويرفعكم فحرصتم عليه وآمنتم به، وفيما يضركم ويخزيكم فابتعدتم عنه؟!

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ
لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾
لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ
مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

[١١] يخبر جل علا بكثرة القرىٰ التي أهلكها بسبب ظلمها وإصرارها علىٰ الكفر والطغيان، وأخبر أنه أوجد بعد هذه الأمم التي أبيدت أمما أخرىٰ لم يكونوا مثلهم، وفي هذا تحذير لهذه الأمة من الظلم والطغيان فينالها ما نال الأمم السابقة.

[١٢] فلما أحس هؤلاء الظالمون بنزول العذاب وتيقنوا من وقوعه إذا بهم يخرجون مسرعين هاربين من قريتهم ظنًّا منهم أنهم سوف يفرون من عذاب الله.

[١٣] فناداهم منادٍ علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء: لا تهربوا وارجعوا إلىٰ مساكنكم والنعم التي أبطرتكم، لعل بعضكم يسأل بعضًا عن أسباب نكبتكم وهلاككم، وسبل الخلاص منها؟ ولكن هيهات.

[١٤] ولما رأىٰ المشركون العذاب وتيقنوا من وقوعه اعترفوا بجرمهم وقالوا: ياهلاكنا ويابؤسنا إنَّا كنَّا ظالمين لأنفسنا بسبب ما كنَّا فيه من الكفر والإعراض عن دين الله وتكذيب الرسل وما جاءوا به من الحق.

[١٥] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الظالمين استمروا في الدعاء علىٰ أنفسهم بالهلاك حتىٰ أهلكهم الله وجعلهم كالزرع المحصود الذي يكدس بعضه علىٰ بعض، وكالنار إذا اشتعلت صار لها لهب وسعار؛ فإذا أخمدت صارت رمادًا لا حياة فيهم، نعوذ بالله من سوء المنقلب. وفي هذا تحذير لهذه الأمة من تكذيب النبي ﷺ فيحل بهم ما حل بغيرهم من الأمم السابقة.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما من عجائب مخلوقاته عبثًا وباطلًا؛ بل خلقهما للاعتبار والاتعاظ وإدراك قدرة الله وعظمته وأحقيته بالعبادة وحده.

[١٧] واعلموا أيها الناس لو أراد الله أن يتخذ ما يُتلهَّىٰ به – وهو منزه عن هذا – لاتخذه من عنده ومن جهته، لا من عندكم، إن كان يريد ذلك، ولكن الله ما كان ليفعل ذلك؛ لأنه لا يليق به وليس من مقامه اللهو والعبث، وهذا الافتراض تنزُّلٌ مع هذه العقول الصغيرة للإقناع.

[١٨] واعلموا أيها الناس أن الله خلق السماوات والأرض ليبين الحق الذي من أجله أرسل الرسل وأنزل الكتب، ولكي يزيل بالحجة الشبه الباطلة التي تمسك بها أهل الضلال، فيحطمها ويقضي عليها، واعلموا أيها المشركون أن لكم العذاب الشديد في الآخرة بسبب ظنونكم السيئة له بالعبث، أو وصفكم كلامه بالسحر والشعر، أو نسبة الولد والصاحبة له وما لا يليق به جل شأنه.

[١٩] واعلموا أيها الناس أن لله وحده ملك السماوات والأرض، وعنده سبحانه الملائكة الذين لا يتعاظمون ولا يأنفون عن عبادته والخضوع له، ولا يملُّون ولا يسأمون من هذه العبادة.

[٢٠] ثم بين سبحانه أنهم يستغرقون جميع أوقاتهم في تسبيح الله وتنزيهه وذِكْره ليلًا ونهارًا، فلا ينقطعون ولا يتوقفون عن ذلك في وقت من الأوقات.

[٢١] ثم أنكر سبحانه علىٰ هؤلاء المشركين اتخاذهم معبودات لهم – من دون الله – من الأرض!، وهذه الآلهة عاجزةٌ لا يستطيعون خلق أو بعث الموتىٰ وإحياءهم، فكيف يتخذونهم آلهة مع هذا العجز الظاهر؟!

[٢٢] فرد جل وعلا عليهم بدليل عقلي فقال: لو كان في هذه السماوات والأرض آلهة أخرىٰ غير الله سبحانه وتعالىٰ لفسدتا واختل نظامهما؛ لأن كل إله يريد أن تكون له الكلمة، ثم نزه سبحانه نفسه وبرأها عما وصفه به الجاهلون من أن يكون له شريك في ألوهيته جل شأنه وتقدس.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: غير الله، ولا يجوز أن تكون بمعنىٰ الاستثناء، وبهذا يكون المعنىٰ: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا.

[٢٣] ثم أخبر جل وعلا أنه لا يستطيع أحدٌ من خلقه أن يسأله عن أفعاله؛ لعظمته وقدرته، وسلطانه وجبروته، أما العباد فإنهم مسؤولون عن أفعالهم، وسوف يحاسبون عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٢٤] ثم ساق جل وعلا دليلًا آخر علىٰ وحدانيته فقال: وهؤلاء المشركون الذين اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله، يزعمون أنها تنفع وتضر؟؛ قل لهم يانبي الله: هاتوا حجتكم ودليلكم علىٰ دعواكم أنها آلهةٌ، وأنها تنفع وتضر، ثم قل لهم: هذا كتاب الله الذي أُنزل عليَّ، وهذه كتب الأمم السابقة ليس فيها دليلٌ علىٰ دعواكم؛ بل كلُّها تأمر بتوحيد الله وعبادته وحده دون من سواه، واعلم يا نبي الله أن أكثر هؤلاء المشركون مقلِّدون متَّبعون لأسلافهم في الجدال بغير علم، وفي الضلال، وعدم الوصول للحق؛ بسبب إعراضهم عنه.

[٢٥] ثم بين سبحانه أن جميع الرسل الذين أرسلهم قبل النبي ﷺ أخبرهم عن طريق الوحي أنه لا معبود بحق إلّا الله، فأسلموا وأنيبوا لله ووحدوه.

[٢٦] ثم أخبر جل في علاه أن المشركين زعموا زعْمًا فاسدًا شنيعًا فقالوا: إن الله اتخذ ولدًا بأن جعل الملائكة من بناته، كما زعم اليهود في عزير، وزعم النصارىٰ في المسيح -تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-، ثم نزه تعالىٰ نفسه بعد هذا القول الشنيع الذي قالوه، وأخبر سبحانه أن الملائكة خلقٌ من خلقِ الله.

[٢٧] ثم أخبر سبحانه أنه أكرم هؤلاء الملائكة وجعلهم مكرمين، واختصهم بفضائل ليست لغيرهم، ومن ذلك أنهم لا يقولون شيئًا حتىٰ يقوله الله، أو يأمرهم به، وهم ممتثلون أمر الله وطاعته ويعملون بها علىٰ الدوام، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرُون.

[٢٨] وهؤلاء الملائكة يعلم جل في علاه جميع أحوالهم وأعمالهم السابقة واللاحقة، وبين سبحانه أن من صفاتهم: أنهم لا يشفعون لأحد من البشر إلا لمن ارتضىٰ عز وجل شفاعتهم له.

ومن صفاتهم: أنهم مع خوفهم من الله سبحانه فإنهم حذرون من مخالفة أوامر الله ونواهيه وعقابه.

[٢٩] ومع هذه الصفات الجليلة بين سبحانه لو فُرِض أن أحدًا منهم عصىٰ وخالف، وادَّعىٰ الألوهية من دون الله؛ فسيكون جزاؤه نار جهنم يدخلها ويصلاها؛ كما هو جزاء الظالمين المجاوزين حدودهم.

[٣٠] ثم أشار جل وعلا إلىٰ عظمته وقدرته الإلهية، فقال: أولم يعلم هؤلاء الكفار أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وأبدع خلقهما؛ ومن ذلك أن السماوات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتصقتين ففصل سبحانه بعضهما عن بعض، ثم جعل السماء سبعًا، وجعل الأرض سبعًا، ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ [فصلت:١٢]، و﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

ثم أمر سبحانه السماء بإنزال المطر، وأخبر أنه جعل من الماء كل شيء حي، وأنه كان سببًا في إحياء الأرض بإخراج النبات منها، ومع رؤية ومشاهدة الكفار لعجائب مخلوقات الله وعظيم قدرته فإنهم لم يؤمنوا بالله ولم يصدقوا رسله وما جاءوا به.

[٣١] ثم أخبر سبحانه أن من رحمة الله وحُسْن تدبيره: أنه جعل للأرض جبالًا تُثبِّتها كي لا تتحرك وتضطرب، وجعل فيها طرُقًا سهلة معبَّدةً لسلوكها والسيْر عليها، لعلَّكم أيها الناس تهتدون بتفكركم في هذه الآيات إلىٰ توحيد الله وإفراده بالعبادة.

[٣٢] ثم أخبر جل في علاه أنه جعل السماء سقفًا للأرض - بلا أعمدة ترىٰ -، وحفظها من السقوط، ومن الشياطين، وأخبر أن المشركين عن آيات السماء العظيمة - وما فيها من دلالة علىٰ وحدانية الله - لغافلون ساهون لاهون.

[٣٣] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وجعل لكلٍّ فلكٍ من هذه الأفلاك مسارًا خاصًّا يسير فيه بانتظام دقيق، لا يحيد عنه، ولا يتعدَّاه.

[٣٤] واعلم ياأيها النبي أن الله ما أعطىٰ لبشرٍ من قبلك البقاء الأبدي في الدنيا، والخلود فيها؛ فهل إذا متّ يظن هؤلاء المكذبون أنهم يخلدون في الدنيا بعدك؟!.

[٣٥] يخبر جل وعلا أن كل نفس مخلوقة في هذه الدنيا ستذوق الموت، وتشرب من كأسه - وإن طال بها الزمان -، واعلموا أن الله سوف يختبركم في حياتكم الدنيا بالخير والشر، والمرض والصحة، والفقر والغنىٰ، والذل والعز، والحياة والموت؛ لينظر أيكم أحسن عملًا، ثم ترجعون إليه سبحانه للجزاء والحساب.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا
ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

[٣٦] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار إذا شاهدوا النبي ﷺ أشاروا إليه بسخرية واستهزاءٍ وقالوا: أهذا الذي يسب آلهتكم؟!؛ وذلك أنه ﷺ مر علىٰ ملأ من قريش فيهم أبو جهل فأشار أبو جهل إلىٰ رسول الله ﷺ وقال وهو يضحك: أهذا نبي بني عبد مناف الذي يعيب أصنامكم؟! ومن العجب أنهم كذبوا بآيات الرحمن وجحدوا نعمه؛ فسبحان الله الذي جعلهم يعيبون الذي يسبُّ آلهتهم التي لا تنفع ولا تشفع، ثم هم يكفرون بالذي يرحم ويرزق وينفع ويكشف الضر، وهكذا انقلبت الموازين عندهم.

[٣٧] يخبر جل وعلا أن الإنسان طُبع علىٰ التعجّل في الأمور، ومبادرة الأشياء، واستعجالها، وقد استعجلت قريش نزول العذاب بها - استكبارًا وعتوًّا -، فقال الله لهم: اعلموا أيها الكفار أن عذاب الله سيأتيكم وسترونه بأعينكم، وستحلُّ بكم نقمته - في الأجل الذي حدده لكم، لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون -، فلا تستعجلون ذلك.

[٣٨-٣٩] ثم أخبر جل وعلا بما قاله المشركون المستعجلون للعذاب تكذيبًا واستهزاءً وسخرية: متىٰ يحصل ما وُعِدْنا به؟! إن كنتم صادقين في وعدكم. فرد جل وعلا عليهم قائلًا: لو يعلم هؤلاء الكفار علم اليقين حقيقة العذاب الذي وُعِدُوهُ، وأن فيه نارًا حاميةً تحيط بهم إحاطةً تامّةً فتحرق وجوههم وظهورهم؛ ولو علموا أنه ليس لهم نجاةٌ من تلك النار، ولا يستطيع أحدٌ إنقاذهم؛ لمَا استعجلوا العذاب، ولمَا طلبوه واستهانوا به.

كما أخبر جل وعلا عن مقولة النضر بن الحرث الذي قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال:٣٢]، فرد عليهم جل وعلا: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، ثم نقول: أيها المستعجلون بطلب العذاب من جهلكم وضلالكم لو أتىٰ ماذا يمكنكم فعله أو استدراكه؟ هل تستطيعون رده أو الهروب منه؟! وكان الأولىٰ بهؤلاء الكفار أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أن الساعة التي وعدوا بها سوف تأتيهم فجأة فتدهشهم ويقعون في حيرة، ويخافون منها خوفًا عظيمًا، ولا يستطيعون ردها أو التخلص منها، ولن يعطوا الفرصة لكي يتوبوا أو يعتذروا.

والساعة المذكورة في هذه الآية هي الساعة التي تطلع فيها الشمس من مغربها، أما قبل ذلك فساعة كل فرد هي ساعة احتضاره.

[٤١] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ لطفًا به لمَّا سخروا واستهزأوا به، فقال له: واعلم يانبي الله أنه استهزئ برسل من قبلك فحل بهؤلاء المستهزئين العذاب الأليم الذي كانوا يستهزؤون ويسخرون به في الدنيا؛ فأنت لست بدعًا من الرسل فكلهم حصل لهم مثل ما قوبلتَ به من أمتك.

[٤٢] وقل يانبي الله لهؤلاء الكفار المعرضين: من الذي يحميكم ويحرسكم في ليلكم ونهاركم إذا أراد الرحمن إنزال العذاب بكم؟!؛ بل هؤلاء الكفار معرضون عن القرآن وآياته، ولذلك ضلّوا وأشركوا.

[٤٣] واسأل يارسول الله هؤلاء المشركين: هل لهم آلهة تمنع عنهم عذابنا؟؛ كلا فإنه ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا؛ لأن هذه الآلهة لا تستطيع نصر نفسها فكيف تستطيع نصر من يعبدها؟ وهم مخذولون لأنهم ليس لهم من الله معين علىٰ أمورهم.

[٤٤] ولا تلتفت يارسول الله إلىٰ هؤلاء المشركين الذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع؛ فقد اغتروا هم وآباؤهم بسبب إمهالنا لهم لمَّا رأوا كثرة الأموال والبنين وطول الأعمار، فاستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم، وظنوا أنهم لن يعذبوا، ألم ينظر هؤلاء الكفار لأرضهم كيف ننقصها من أطرافها بدخول الإسلام فيها فتنقص شيئًا فشيئًا حتىٰ تكون أرضًا إسلامية، ويكون جند الله هم الغالبون: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات:١٧٣]؟!، ويكون الكفار هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون.

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۖ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

[٤٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين المستعجلين للعذاب: اعلموا أن هذا العذاب الذي أخوفكم منه ليس مني، وإنما هو بوحي من الله وهو هذا القرآن، كما قال نوح لقومه لمّا استعجلوا العذاب: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[هود:٣٣]، ثم وبخ جل وعلا هؤلاء الكفار لعدم انتفاعهم بهذا القرآن؛ لأنهم لا يسمعونه سماع تدبر، ولا يلتفتون إلىٰ إنذاره ومواعظه.

[٤٦] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار لو أصابهم نفحة، أي: جزءٌ قليل من العذاب فسيندمون علىٰ أفعالهم السيئة حين لا ينفع الندم، وينادون علىٰ أنفسهم بالويل والثبور والهلاك، واعترافهم بظلمهم لأنفسهم بما كانوا عليه من الشرك والكفر.

وهذا هو المعروف عن العصاة والمجرمين لا يستفيقون من ضلالهم إلّا إذا حلت بهم النكبات، نعوذ بالله من جهنم وأهوالها.

[٤٧] يخبر عز وجل بأنه يحضر الميزان العادل يوم القيامة لحساب الناس، ولن يُظْلَمَ أحدٌ من الناس في ذلك اليوم مؤمنهم وكافرهم، ولو كان عمل عملًا يسيرًا بقدر ذرة من خردل من خير أو شر؛ فسوف يأتي بها جل وعلا في صحيفة أعماله، وكفىٰ به سبحانه محصيًا أعمال العباد لا يخفىٰ عليه شيء منها في الأرض ولا في السماء.

قال الإمام الغزالي: الميزان حق، ووجهُهُ: أن الله تعالىٰ يحدث في صحائف الأعمال وزنًا بحسب درجاتها عند الله فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد.

[٤٨] ثم يخبر جل شأنه أنه أنعم علىٰ موسىٰ وهارون فآتاهما الفرقان، وهي: التوراة، وسميت بذلك لأنها تفرق بين الحق والباطل، وبين التوحيد والشرك، وجعل لهما نورًا يهتدي به المهتدون، وموعظةً يتذكر وينتفع بها المتقون، الذين يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٤٩] ثم أخبر سبحانه أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم يخافون من عذاب الله في سرهم وعلنهم، وأنهم خائفون وجلون من يوم الحساب وما يقع فيه من حساب دقيق علىٰ أعمالهم.

[٥٠] واعلموا أيها الناس أن هذا القرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيكم محمد ﷺ جعله ذكرًا وموعظةً لِمَن تذكّر به، واتبع أوامره، واجتنب نواهيه، وجعل فيه بركةً وخيرًا كثيرًا، ثمَّ وبَّخ سبحانه من أنكره وكذَّب به وأعرض عنه، فقال علىٰ سبيل التوبيخ: أفأنتم له منكرون؟!

[٥١] واعلموا أن الله جل وعلا أعطىٰ - بفضله وكرمه - إبراهيم الخليل عليه السلام الرشد اللائق به وبأمثاله من أولي العزم من الرسل من قبل إرسال موسىٰ وهارون عليهما السلام، وأخبر سبحانه أنه كان عالمًا بأن إبراهيم أهل لما أعطاه، وعالمًا بقدرته علىٰ تحمل الرسالة والمتاعب التي سوف يجتازها؛ لأن الله هو الذي منحه هذه القدرة.

[٥٢] وتذكروا يوم أن قال إبراهيم لأبيه وقومه - علىٰ سبيل الإنكار والاستغراب -: ما هذه التماثيل التي نحتُّمُوها بأيديكم ثم أقمتم علىٰ عبادتها؟!

[٥٣] فأجابوه قائلين - بلا حجة -: لقد وجدنا آباءنا قائمين علىٰ عبادتها ملازمين لها فتبعناهم وقلَّدْناهم.

[٥٤] فقال لهم إبراهيم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين اتبعتموهم في عبادة هذه الأصنام في ضلالٍ بيِّنٍ واضح، وزيغ عن طريق الحق.

[٥٥] فقالوا له: أأنت جادٌّ فيما تقول، وقاصدٌ له؟ أم أنت مستهزئٌ في كلامك، فنحمله علىٰ محمل المزح واللعب؟

[٥٦] فأجابهم إبراهيم قائلًا: بل ربكم - المستحقُّ للعبادة وحده دون من سواه؛ لأنه هو الله الخالقُ المُبدِع للسماوات والأرضين، وأنا علىٰ ذلك من الشاهدين.

[٥٧] ثم قال إبراهيم: ووالله لأكسرنَّ لكم هذه الأصنام - التي عكفتم علىٰ عبادتها أنتم وآباؤكم -، وذلك بعد أن تتركوها وحدها، وتنصرفوا عنها، وهذه اليمين التي حلف بها قيل: إنه قالها سرًّا، وقيل: إن رجلًا منهم سمعه يذم الأصنام؛ فبلّغهم.

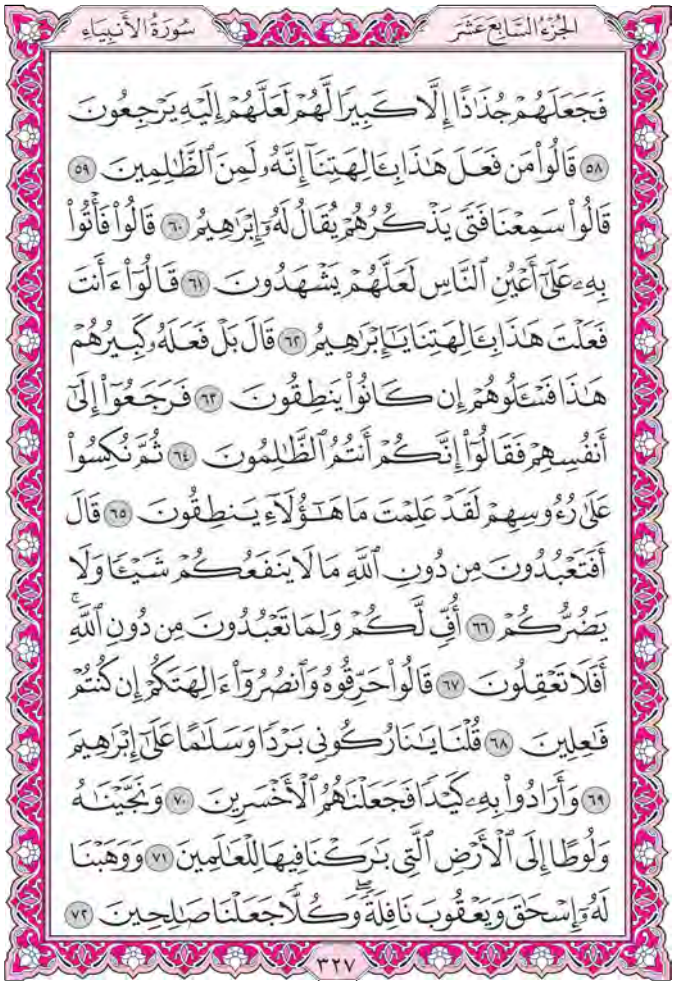

[٥٨] ثم أخبر سبحانه أن إبراهيم عليه السلام كسَّر هذه الأصنام، وجعلها قطعًا صغيرةً متناثرةً، وترك صنمهم الكبير فلَم يكسره؛ لكي يرجع المشركون إلىٰ هذا الصنم فيسألونه لِمَ فعلتَ بهم ذلك، وحين لا يجيبهم؛ سيتنبهون ويفطنون أن الأصنام لا تملك نفعًا ولا ضرًّا.

[٥٩] فلمّا رأوا ذلك قالوا: من فعل هذه الفعلة بآلهتنا، إنه لَمِنَ المتجاوزين للحدود.

[٦٠] فقال بعض من سمع إبراهيم وهو يحلف بأنه سيكيد أصنامهم: لقد سمعنا شابًّا يذكرهم، أي: يعيبهم ويتوعدهم بسوء اسمه إبراهيم. **قال الشيخ صالح بن حميد:** قال ابن عباس رضي الله عنه: (ما بعث الله نبيًّا إلّا شابًّا، ولا أوتي العلم عالم إلّا وهو شابٌّ، وتلا هذه الآية).

[٦١] قالوا: فأْتوا بإبراهيم أمام الملأ يُشاهدونه ويسمعون كلامه، ليشهدوا اعترافه بأنه صاحب تلك الفعلة.

[٦٢] فلما جاءوا بإبراهيم سألوه قائلين: هل أنت من قام بتكسير وتحطيم آلهتنا؟

[٦٣] فأجابهم إبراهيم عليه السلام أمام الملأ - قاصِدًا إلزامهم بالحجة -: بل الذي كسرها وحطمها هو كبيرهم هذا، فاذهبوا إليهم فاسألوهم، وانتظروا جوابهم إن كانوا ينطقون أو يتكلمون.

[٦٤] فدمغتهم الحجَّة، ورجعت إليهم عقولهم، واستيقظت منهم فِطَرُهم، واعترفوا بخطئهم، وقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون المتجاوزون لحدودكم بعبادتكم هذه الأصنام التي لا تنطق، وليس الظالم من كسرها وحطَّمها.

[٦٥] ثم ما لبِثوا أن انتكست عقولهم، ولعب الشيطان بأحلامهم وأخذتهم العزة بالإثم؛ فقالوا بعد مناقشة بعضهم بعضًا: لقد علمتَ ياإبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق ولا تتكلم فكيف تأمرنا أن نسألهم؟ فهل تستهزئ بنا؟!

[٦٦] فوبّخهم إبراهيم عليه السلام قائلًا: كيف تعبدون من دون الله من لا ينفع ولا يضرّ؟! كيف تعبدون من لا يستطيع دفع الضر عن نفسه، ولا يتكلم أو ينطق؟!!

[٦٧] ثم قال لهم عليه السلام: قُبْحًا لكم، ولآلهتكم التي تصرفون لها العبادة من دون الله، أفلا تحرّكون عقولكم فتُدرِكون فداحة ما أنتم عليه، وقُبحَ ما صرتم إليه؟!

[٦٨] فلمَّا أُفحِمُوا ولم تبقَ لهم حجَّةً لجأوا إلىٰ استخدام قوتهم وسلطانهم - كعادة أهل الباطل - فقالوا: اجمعوا له حطبًا وأوقدوا نارًا عظيمةً، واحرقوا إبراهيم فيها انتقامًا منهُ، وانتصارًا لآلهتكم التي كسّرها وأهانها!!

[٦٩] فنصر سبحانه إبراهيم بأنْ أبطل خاصية الإحراق التي في النار، وقال جل وعلا للنار آمرًا لها: كوني بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم، فكانت كما أمرها الله، فلَم يصبه منها أذىٰ، ولا أحسَّ فيها بمكروه.

[٧٠] ثم بين سبحانه أن قوم إبراهيم أرادوا به هلاكًا وشرًّا، فخيَّب الله سعْيهم، وأبطل كيدهم، وجعلهم مغلوبين، وجعل أمرهم في سفالٍ في الدنيا والآخرة.

[٧١] ونجّىٰ جل وعلا إبراهيم ولوطًا الذي آمن به واتَّبعه، وأخرجهما إلىٰ أرض الشام المباركة، الكثيرة الخيرات، التي بها أرض بيت المقدس الذي بارك الله حوله.

[٧٢] ولمّا هاجر إبراهيم عليه السلام واعتزل قومه؛ أنعم الله عليه بالذرية الصالحة؛ فوهبه أولًا إسماعيل ثم إسحاق، ثم زيادةً علىٰ ذلك وهب له يعقوب الذي هو من نسل إسحاق، وجعلهم الله كلهم صالحين عاملين بتوحيد الله وطاعته رسلًا وأنبياء.

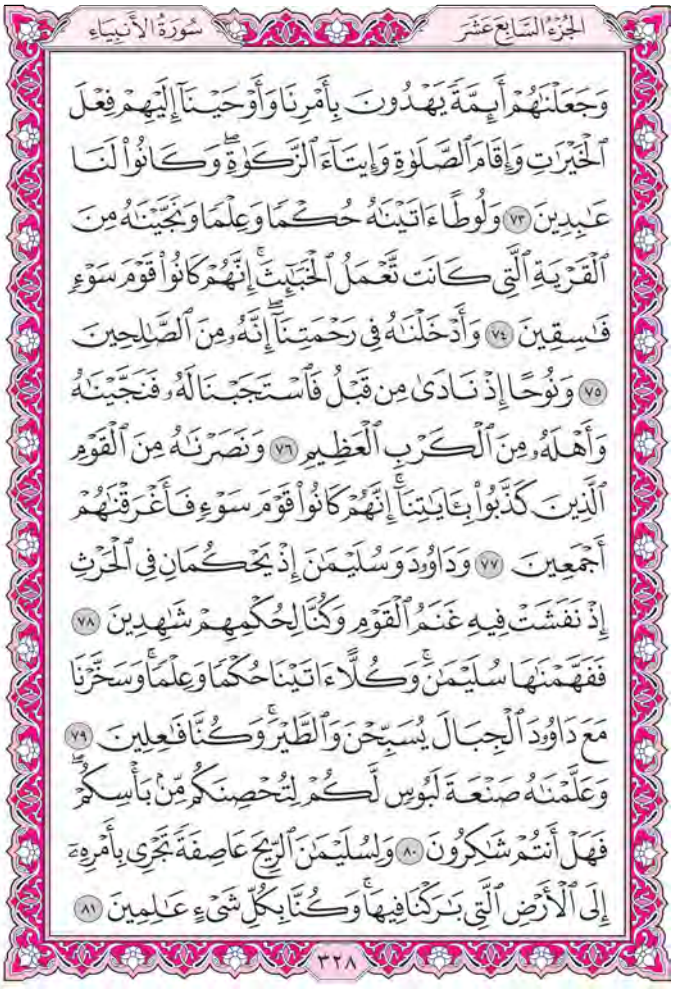
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ
ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ
إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ۖ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمةً في الهُدىٰ، يهدون الناس بدين الله، وجعلهم رؤساء يُقتَدىٰ بهم في فعل الخير والبرِّ، وأمرهم بفعل الخيرات، فيفعلونها ويأمرون الناس بها، وأمرهم بأداء حق الله، ومن أعظمه: أداء الصلاة، وأمرهم بأداء حق العباد، ومن ذلك: إيتاء الزكاة وإخراجها، ففعلوا ما أُمِروا به، وكانوا من المنقادين القائمين المداومين علىٰ العبادات القلبية والقولية والفعلية.

[٧٤] وأخبر سبحانه أنه أنعم علىٰ لوط فأعطاه النبوة والحكم بالحقِّ بين الناس، وأعطاه العلم الشرعي والفقه في الدين، ونجّاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنهم كانوا قوم سوء؛ كذّبوا نبيَّ الله، وأصرُّوا علىٰ الفواحش، ففسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله؛ فأهلكهم ودمّرهم.

[٧٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أنعم أيضًا علىٰ لوطٍ بأن نجّاه مما حلَّ بقومه من الهلاك والدمار، ثم أدخله سبحانه في رحمته وأخبر أنه من عباد الله الصالحين المصلحين.

[٧٦] ثم أخبر جل شأنه عن نداء نوح عليه السلام يوم أن دعا ربه؛ فقال: إنّي مغلوبٌ فانتصر، وحين قال: رب لا تذر علىٰ الأرض من الكافرين ديارًا؛ فاستجبنا له، وأعطيناه سؤله، ونصرناه علىٰ من كذّبه، ونجّيناه من كربٍ وغمٍّ الطوفان والغرق، هو ومن كان معه من المؤمنين في الفلك المشحون.

[٧٧] ثم أخبر جل وعلا أنه نجّىٰ نوحًا من كيد قومه الذين كذبوا بآيات الله الدالة علىٰ قدرته وصدق نبيه؛ فلم يمسوه بسوء؛ حيث إنهم هددوه إن لم ينته عن دعوته لهم فقالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]؛ ثم ذم جل وعلا قوم نوح وذكر بأنهم كانوا قوم سوء وقبح، وأخبر بأنه أغرقهم بالطوفان كلهم أجمعين لإصرارهم علىٰ الكفر والعصيان، ولم ينج منهم أحد إلا الذين اتبعوا نوحًا وركبوا معه في السفينة.

[٧٨] ثم أخبر سبحانه بقصة داود وسليمان عليهما السلام حين حكما في قضية عرضت عليهما بين اثنين، وهي: أن غنم أحدهما اعتدت ليلًا علىٰ زرع الآخر، وانتشرت فيه وتفرقت؛ فأكلت الزرع وأفسدته وحطمته، فرفعا أمرهما إلىٰ نبي الله داود، ولما كان الزرع الذي أُفسد يساوي قيمته قيمة الأغنام حكم داود بالغنم لصاحب المزرعة، فلما خرجا من عنده لقيا سليمان فقصَّا عليه القصة والحكم، فقال سليمان لهما: هناك أمر أحكم وأرفق من هذا؛ فرجعا إلىٰ داود فقالا له كلام سليمان؛ فدعاه وقال له: ما هو الأرفق؟ فقال سليمان: تُعطىٰ الغنم لصاحب المزرعة سنة ينتفع بألبانها وما تلد وما ينزع منها من صوف، وتُعطىٰ المزرعة لصاحب الغنم يزرعها له حتىٰ تكون مثل ما كانت قبل أن تتلفها الأغنام، ثم يستلم صاحب المزرعة مزرعته، وصاحب الغنم غنمه، فقال داود: أصبت وأمر بتنفيذه، ثم أخبر جل وعلا أنه كان لحكمهما شاهدًا وحاضرًا.

[٧٩] ثم بين سبحانه أنه هو الذي فهَّم سليمان الحكم الأنسب للطرفين، وأنه أعطىٰ كلًّا من داود وسليمان الإصابة في القول والعمل والفقه في الدين، ثم أخبر جل وعلا أنه سخر الجبال والطير مع داود تسبح معه إذا سبح، وفعل الله ذلك مع داود تكريمًا له وتأييدًا لنبوته وملكه.

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا أنه علَّم داود صناعة الدروع فيعملها بإتقان وإبداع؛ بحيث تقي المحارب من ضربات السيوف والرماح، فالواجب عليكم شكر هذه النعم التي سخرها الله علىٰ يد داود عليه السلام؟ ولا شك أن شكر النعم يكون بالثناء علىٰ الله وبالاعتراف بفضله، وباستعمالها في طاعته والتقرب إليه.

والسؤال في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]، يعني: الأمر، أي: يجب عليكم شكر هذه النعم.

[٨١] ثم أخبر سبحانه أنه سخر لسليمان الريح الشديدة الهبوب التي تحمله هو وجنوده وتسير به بأمره عليه السلام، وتقطع به المسافات الطويلة إلىٰ حيث يشاء وإلىٰ بيت المقدس في الشام التي بارك الله فيها بكل أنواع الخيرات، وكان سبحانه عليمًا بكل ما يجري في هذا الكون.

[٨٢] ثم أخبر سبحانه أنه سخر لسليمان الشياطين؛ فمنهم من يغوص في البحر فيستخرج له الجواهر النفيسة، ومنهم من يعمل في أعمال أخرىٰ كالصناعة والبناء وغير ذلك، وكانوا لا يستطيعون رفض ما يُطلب منهم، وكان سبحانه حافظًا لهؤلاء الشياطين فلا يخرجون عن طاعته، ولا يحصل منهم فساد فيما هم مأمورون بفعله.

[٨٣] ثم ذكر سبحانه قصة أيوب عليه السلام؛ حيث ابتلاه الله وامتحنه امتحانًا شديدًا، بمرضه وذهاب أهله وماله وولده، فالتجأ إلىٰ الله ودعاه وشكىٰ حاله إليه قائلًا: رب إني مسني الضر، ثم توسَّل إليه بصفة الرحمة، قائلًا: وأنت أرحم الراحمين.

[٨٤] فاستجاب الله دعاءه فشفاه وعافاه، وأذهب عنه ما أصابه من الضر، وردَّ عليه أهله وماله ومثلهم، وأعطاه جل وعلا ذلك لرحمته به، وليكون ذكرىٰ وعبرةً وقدوةً للعابدين فيصبرون كما صبر، ويتضرعون كما تضرَّع.

[٨٥] ثم ذكر سبحانه قصة كل من: إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام؛ فأخبر أنهم كانوا من الصابرين علىٰ ما أُمروا به، فاستحقوا الأجر العظيم، والثناء الجميل.

[٨٦] وبسبب صبرهم وصلاحهم؛ أخبر جل وعلا أنه أدخلهم في رحمته الخاصة بأوليائه، وأحاطهم بها؛ لأنهم من عباد الله الصالحين.

[٨٧] ثم ذكر سبحانه قصة صاحب الحوت، وهو يونس بن متَّىٰ عليه السلام؛ حينما أرسله الله إلىٰ قومه فدعاهم فلم يؤمنوا، فتركهم وخرج من عندهم وهو في غاية الغضب، واعتقد أن الله منزلٌ بهم العقوبة فخاف وهرب؛ حيث لم يأذن الله له بالخروج، فحلت به العقوبة؛ حيث ابتلاه الله بأن الْتقمهُ الحوت في البحر، فلما رأىٰ أنه صار في بطن الحوت أدرك أنه أخطأ وأنه استعجل، وأخذ ينادي ربه تائبًا ومنيبًا إليه، قائلًا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: أشهد يارب أنك لا إله إلا أنت، وأنه لا معبود بحق إلا أنت، فأنت وحدك المستحق للعبادة، وإني أنزهك تنزيهًا عظيمًا عما لا يليق بجلالك وعظمتك، وإني أعترف بأني كنت من الظالمين لنفسي حين فارقت قومي دون أن أستأذنك وأطلب منك ذلك، وإني أعترف بخطئي فتقبل يارب توبتي، واغسل حبتي، إنك أنت الغفور لعبادك الرحيم بهم.

قال الشيخ عبدالله البسام: إن (ظن) في قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، بمعني: أيقن، أي: أيقن وتأكد أننا لن نضيِّق عليه، وأننا سوف ننجِّيه؛ لمكانته وعبادته وإخلاصه، فقوله: ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، يعني: لن نُضيِّق عليه، وهي مثل: قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[الطلاق:٧]، أي: ومن ضُيِّق عليه رزقه.

ولا يقال: إن (ظن) هنا بمعنىٰ: شك في قدرتنا؛ لأن الشكَّ في قدرة

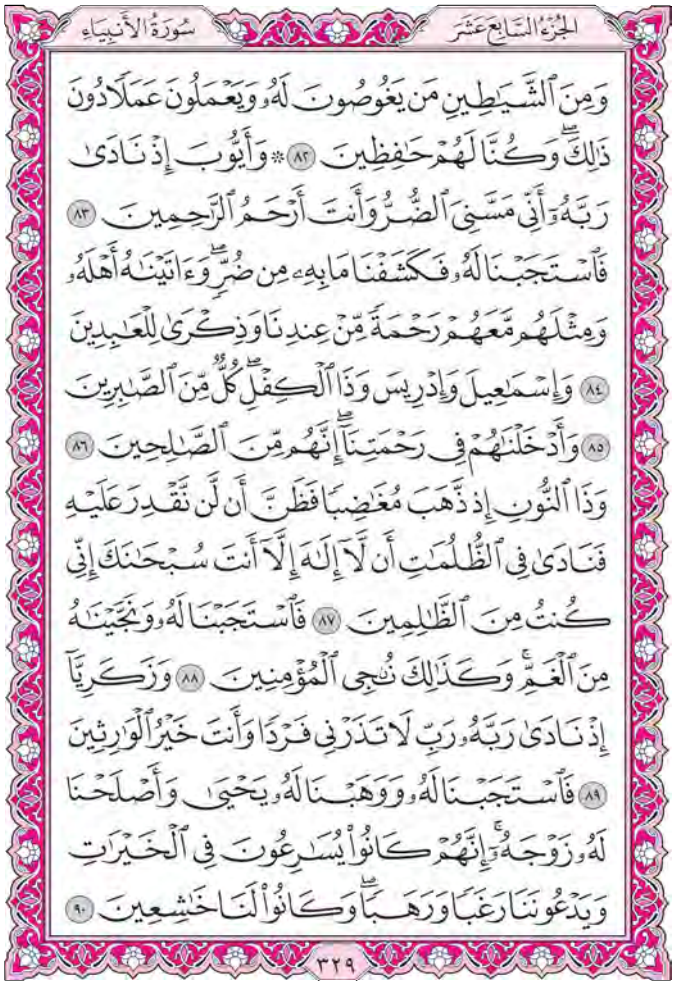

الله عز وجل كُفْرٌ، ويونس عليه السلام نبي يعرف الله ويعرف أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وأيضًا فإن الأنبياء معصومون مما هو أقل من الشك من الذنوب.

وكلامه حق جزاه الله خيرًا.

[٨٨] ثم أخبر جل في علاه أنه استجاب ليونس عليه السلام ونجّاه من الشدّة التي وقع فيها، وأخرجه من بطن الحوت، وكما نجا سبحانه يونس من بطن الحوت فإنه ينجِّي المؤمنين ويخلصهم مما قد يقع بهم من البلاء.

[٨٩] ثم ذكر جل وعلا قصة زكريا عليه السلام، حينما تضرع إلىٰ الله وناجاه لمّا كبُرت سنه، ورقَّ عظمه، قائلًا: ربِّ لا تتركني وحيدًا فريدًا لا عقب لي يرثني في نبوتي، ويقوم بأمر الدعوة من بعدي، ثم قال متوسِّلًا: وأنت يارب خير الوارثين، أي: خير الباقين.

[٩٠] فاستجاب الله دعاء نبيه زكريا وأعطاه من ألوان النعيم، ومن ذلك أن الله وهبه علىٰ الكبر ابنه يحيىٰ، وشفىٰ له زوجته بأن أزال عنها العقم، ثم أخبر سبحانه أن زكريا وزوجه كانوا يُبادرون لفعل كل خير يُرضيه سبحانه، وكانوا يَدْعُونَ الله راغبين في نعمه، خائفين من عذابه، وكانوا مخبتين متضرعين لله عز وجل دون تكبر أو تجبر.

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ
لِسَعۡيِهِۦۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ
يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾

[٩١] ثم ذكر جل وعلا قصة البتول مريم ابنة عمران رضي الله عنها التي حفظت فرجها وصانته من الفاحشة، ثم أنعم الله عليها بأن أرسل جبريل وأمره أن ينفخ في جيب قميصها فوصلت النفخة إلىٰ رحمها فحملت بعيسىٰ الذي أصبح من أولي العزم من الرسل؛ فكانت مريم وابنها عيسىٰ دلالة واضحة علىٰ عظيم قدرة الله؛ وعبرة للناس إلىٰ قيام الساعة؛ حيث إن الله جعل مريم تحمل من غير زوج.

[٩٢] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء الأنبياء الذين أوردنا ذكرهم وغيرهم ممن لم نذكرهم دينهم واحد، وهو دين الإسلام؛ فيجب عليكم أن تتبعوهم وتؤمنوا بما جاءوا به، واعلموا أن الله ربكم ورب الناس أجمعين فيجب عليكم أن تخلصوا العبادة له لتفوزوا برضاه وجنته، فقوله: ﴿أُمَّةً﴾ في هذه الآية يعني: الدين والملة.

[٩٣] ثم أخبر سبحانه أن أولئك الذين اختلفوا علىٰ أنبيائهم وتفرقوا وصاروا أحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون؛ فكلهم راجعون إليه سبحانه وسيحاسبهم علىٰ أعمالهم.

[٩٤] ثم أخبر جل وعلا أن من عمل صالحًا وهو مؤمن به، مُتَّبِعٌ لرسوله ﷺ؛ فإن الله لا يجحد عمله ولا يُنْكِره؛ بل يضاعفه له سبحانه أضعافًا كثيرة، وسوف يجده مكتوبًا في صحيفته؛ تقرُّ به عينه يوم الجزاء والحساب.

[٩٥] ثم اعلموا أيها الناس أنه مُمْتَنِعٌ امتناعًا تامًّا رجوعُ قريةٍ - أُهلِكتْ بالعذاب - إلىٰ الدنيا مرَّةً أُخْرَىٰ؛ حتىٰ تقوم الساعة، إلا قليلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨]، والحرام المذكور في الآية هو أن من حكم الله عليهم بالهلاك فإنهم لا يرجعون عن الضلال فيطلبون التوبة لأنه حكم عليهم وانتهىٰ أمرهم بأن ثبتهم الله علىٰ ما اختاروا.

[٩٦] ثم أخبر سبحانه أن من علامات قيام الساعة فتح سد يأجوج ومأجوج، فإذا فُتح خرجوا منه مسرعين وانطلقوا من مرتفعات الأرض متجهين إلىٰ المحشر.

ويأجوج ومأجوج قبيلتان من البشر، قال بعض علمائنا: إنهم هم الصينيون، وقال آخرون: ما دام أن الله لم ينسبهم إلىٰ بلد معين فالسكوت عن مصدرهم أولىٰ؛ لأنهم ربما يكونون من المغول أو غيرهم، وخروجهم من علامات قرب قيام الساعة، وهو يتقارب مع نزول عيسىٰ عليه السلام.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أنه إذا اقتربت الساعة، ودنا يوم القيامة؛ وبدأت الأهوال والقلاقل، مثل ظهور الدابة ويأجوج ومأجوج وعلامات الساعة الكبرىٰ؛ ترىٰ الذين كفروا شاخصةً أبصارُهم، مُفَتَّحَةً عيونُهم من شدّة ما يرون من الأهوال، ثم تراهم في حسرة وندم يدعون علىٰ أنفسهم بالويل والثبور، ويعترفون أنهم كانوا في غَفلةٍ ولهوٍ، وأنهم جاوزوا حدَّهم وكانوا ظالمين، ولات حين مندم.

[٩٨] واعلموا أيها الكفار أنكم وما كنتم تعبدون من دون الله من الأصنام والأشجار والأحجار وغيرها سوف تكونون وقود جهنم وحطبها، وأنكم سوف تدخلونها جميعًا وتعذبون فيها.

لمّا قرأ النبي ﷺ هذه الآية علىٰ المشركين فرحوا؛ حيث علموا أن عيسىٰ وأمه مَعْبُودَانِ من تابعيهم، وعزيرًا معبود من اليهود، فقالوا: إن محمد يقول: إن كل المعبودين من غير الله في النار حتىٰ الأنبياء؛ ففرح الكفار المعاندون للدعوة، وأرادوا بذلك أن يرجع المؤمنون بالرسالة إلىٰ الكفر؛ فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٣].

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أن هذه المعبودات من دون الله لو كانت آلهةً حقًّا كما زعمتم؛ لم يدخلوا النار، ولم يقاسوا حرَّها، وبما أن ما زعمتموه باطل وافتراء؛ فأنتم ومعبوداتكم التي رَضِيَتْ بعبادتكم خالدون مخلَّدون في هذه النار أبد الآبدين.

[١٠٠] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المعذَّبين في النار المخلدين فيها لهم زفيرٌ يخرجونه من صدورهم - من شدَّة العذاب والهمِّ والغمّ -، وبين أنهم وهم في النار لا يسمع بعضهم صوت بعض من شدة الهول وفظاعة العذاب، نسأل الله السلامة والعافية.

[١٠١] ثم بين جل وعلا أن أولئك الذين سبقت لهم من الله سابقة سعادةٍ بأنهم من الناجين، فإنهم يُبعَدون عن جهنَّم، ولا يقتربون منها، ولا يسمعون ضجيج أهلها.

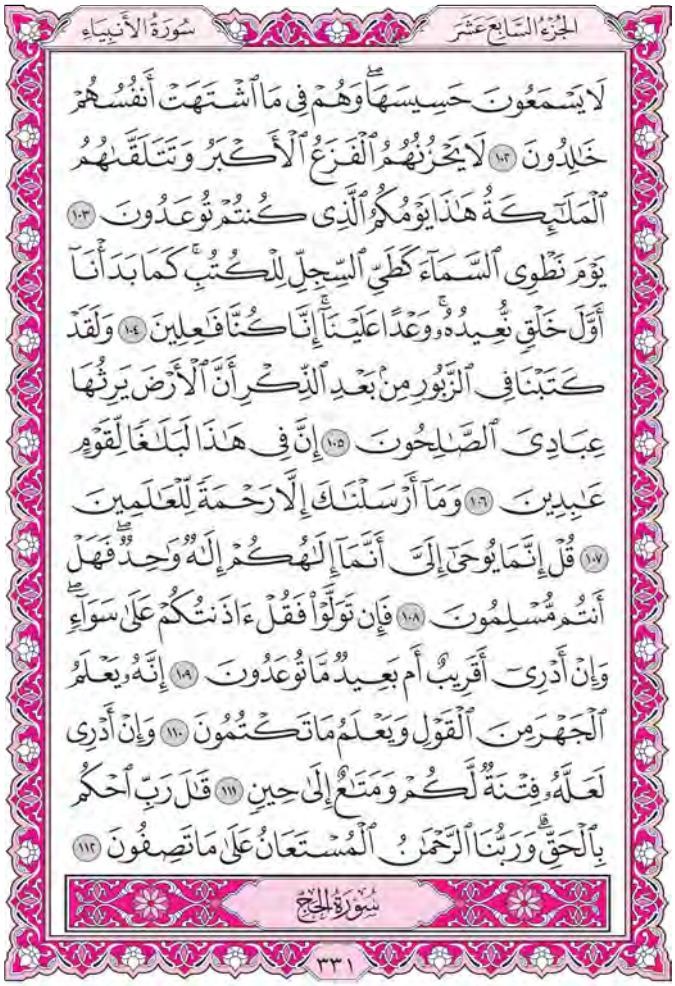

[١٠٢] وهؤلاء المؤمنون الذين دخلوا الجنة لا يسمعون صوت جهنم، ولا صوت ما يُلقىٰ فيها، وهم مشغولون عنها بما أنعم الله به عليهم في الجنة، فهم فيما تشتهيه أنفسهم - من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر - خالدون ماكثون أبد الآبدين.

[١٠٣] ثم أخبر جل في علاه أن هؤلاء المؤمنين لا تُحزِنهم ولا تُخيفهم ولا تُروِّعهم أهوال يوم القيامة، وتستقبلهم الملائكة - بعد قيامهم من قبورهم - في ذلك اليوم الرهيب وهم مُطْمَئِنونَ قائلون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون به في الدنيا، وتُبَشَّرون بما فيه.

[١٠٤] وفي هذا اليوم الذي تستقبل فيه الملائكة الصالحين من عباد الله؛ اقتضت حكمة الله أن تتغير معالم الكون، وأن عالم الآخرة كله يختلف عن عالم الدنيا؛ فالسماء تُطوىٰ كما تُطوىٰ الصحيفة علىٰ ما كتب فيها، ويُبعث فيه الخلق مرة أخرىٰ كما خلقهم الله أول مرة، دون أن يناله جل وعلا تعبٌ أو نَصَبٌ، وهذا وعد من الله عز وجل بأنه قادر علىٰ ما يشاء، وأن قدرته لا يعجزها شيء، وأنه سبحانه يفعل ما وعد به ويحققه؛ إنَّه لا يُخلف الميعاد.

[١٠٥] ولقد كتب جل وعلا وقدَّر في الكتب السماوية المنزلة بعدما كتب في اللوح المحفوظ؛ أن أرض الجنة يرثها يوم القيامة عباد الله الصالحون، الذين أطاعوا الله وعبدوه حق عبادته، واجتنبوا ما نهوا عنه. وقيل في معنىٰ هذه الآية: أن أرض الدنيا تنتقل بالفتوحات من أيدي الكفرة إلىٰ المسلمين.

[١٠٦] واعلموا أيها الناس أن في هذا القرآن بلاغًا، وموعظةً وذكرىٰ للقوم الذين يعبدون الله حق عبادته؛ فيعملون كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، اللازمة والمُتعدِّية، ويستمرّون علىٰ ذلك، ويقيمون عليه ويُلازِمونَه.

[١٠٧] واعلم يانبي الله أن الله جل في علاه ما أرسلك إلا رحمة لجمع الناس، وأنك تحمل للعالمين الهدىٰ والخير والنجاة؛ فمن آمن بك وصدقك كان من الناجين السعداء، ومن كفر بك وكذبك كان من الخائبين الخاسرين؛ فالحمد لله الذي أنعم علينا برحمته محمدٍ ﷺ، ونسأل الله أن نعيش ونموت علىٰ سنته.

[١٠٨] وقل يانبي الله للناس: إن الذي أوحاه الله إليَّ وبعثني به هو: أن الذي يستحق العبادة وحده دون من سواه؛ هو الله جل في علاه؛ فهل أنتم منقادون لأمره؟! خاضعون لشرعه؟ مُسْتَسْلِمونَ لحُكْمِه؟!

[١٠٩] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: فإن رفضوا الحق فقل لهم: لقد أعلمتكم بأوامر الله وبالعقوبة حتىٰ كنَّا وإياكم سواء في العلم بمراد الله، وهو توحيده وتنفيذ أوامره، ولا أدري بعد ذلك متىٰ يحل عذاب الله الذي وُعد به القوم الظالمون.

[١١٠] واعلموا أيها الناس أن الله مُطَّلِعٌ عليكم، عالمٌ بما تجهرون به من الكلام من الطعن في الإيمان والتوحيد، وعالمٌ بما تُخفون في سرائركم وما تكنونه في نفوسكم، وسيجازيكم علىٰ أعمالكم.

[١١١] ثم أمر نبيه ﷺ أن يقول لقومه: ولستُ أدري، لعلَّ إمهالكم وتأخير العذاب عنكم - مع استحقاقكم له -، لعل ذلك يكون ابتلاءً لكم؛ لتزدادوا في طغيانكم لحين وقتِ هلاكِكُمْ؛ فيزداد بذلك عذابُكُم، أو لترجعوا إلىٰ الحق فَتَنْجُوَا من عذاب الله.

[١١٢] ثم ختم جل وعلا السورة بطلب النبي ﷺ بعد أن أدىٰ الأمانة ونصح الأمة؛ حيث تضرع لربه قائلًا: يارب افصل بيني وبين هؤلاء المكذبين بالحق، فاستجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وحكم بينه وبينهم في الدنيا قبل الآخرة؛ فنصره في معركة بدر، ونسأل الله الواسع الرحمة أن يعيننا علىٰ إتمام النصر وإقامة الدولة الإسلامية، وإقامة شرع الله؛ ونستعين به سبحانه علىٰ تحمل سماع ما تصفونه أيها المشركون بألسنتكم من أنواع الشرك والتكذيب والزور والبهتان.